مع إخواني

عثمان بن مظعون

رضي الله عنه

مشاركة الجميع في الهم .. خير من السعادة منفردا

« نعم إنها الهجرة يا سائب »

هتف بها عثمان بن مظعون في حماسة، وهو يلملم أمتعته لابنه السائب الذي لاحقه متسائلا:

- الهجرة..إلى أين يا أبي ؟!

توقف عثمان عن حركته للحظات، وهو ينظر إلى ابنه وهو يبتسم ابتسامة أمل قائلا:

- إلى الحبشة.. لقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن ملكها النجاشي ملك عادل لا يظلم عنده أحد.

ثم تابع في أسى:

- إنها الحل الوحيد لما نحن فيه يا بنى.. سنتان من الاضطهاد والتعذيب الوحشى لا نعرف متى سينتهيان، الجميع يشارك في إذلال المسلمين حتى ابن عمي أمية بن خلف.. سنتان والظلم يهاجمنا من كل اتجاه، والظالمون يتزايدون علينا يوما بعد يوم.

ثم اقترب من ابنه ووضع يده على كتفه قائلا في رفق:

- لقد حان الوقت لنهرب بديننا من هذا السجن الكبير، إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وفي المساء..

تسلل الاثنان إلى شاطئ البحر الأحمر، ليجدا إخوانهما في نفس المكان تنتظرهما سفينتان متجهتان إلى الحبشة.

وما أن اقتربت إحدى السفينتين، حتى شعر عثمان بالراحة والطمأنينة، وبدأ يستعد لأيام يتنسم فيها حريته المفقودة منذ سنين.

وصدق توقع الرسول ﷺ، فلقد استقبلهم النجاشي بترحاب وأعطاهم كل الأمان والحرية.

إلا أن شائعة سرت بعد شهرين من وجودهم في الحبشة، تسببت في عودتهم إلى مكة على وجه السرعة.

فلقد سرت شائعة بأن قريشا قد أسلمت.

واستقبل المسلمون في الحبشة الخبر بذهول وفرح شديدين، مما أفقدهم كثيرا من التركيز والروية، ودفعهم إلى اتخاذ قرار سريع دون دراسة ودون إخبار الرسول ﷺ بالأمر.

فلقد قرر المسلمون فورا العودة إلى مكة.

وبكل الفرح والبشر يصحب عثمان بن مظعون ابنه السائب عائدا إلى مكة، وهو لم يتصور أن الأمور قد عادت إلى نصابها هناك بعد شهرين فقط من هجرته إلى الحبشة.

إلا أنه ما إن دخل مكة.. حتى ذهل مما رأى.

لقد رأى العشرات من المسلمين يعذبون..

وتأمل عثمان المشهد، وما هى إلا دقائق حتى أيقن أن ما تخيله لم يكن إلا سرابا، وأن ما وصلهم من أخبار لم تكن إلا شائعة تسببت في وقوعهم في محنة جديدة.

ونظرت قريش إلى ما حدث، ففغرت فاها كأسد جائع وقع على صيد ثمين، جاء إليه بكل سهولة ودون عناء.

وبدأ عثمان يفكر في حل لتلك الأزمة التي لم تكن في الحسبان.

كيف ينجو من العذاب الذي ينتظره على يد قريش، بعد أن نجا منه بجهد جهيد منذ شهرين ؟

يا لله..أيكون قد عاد بإرادته وطوعه إلى هذا الشقاء؟!

وفجأة..لمع في ذهنه، من رأى أن في يده حلا للمشكلة.

عمه الوليد بن المغيرة.

سيذهب إليه ويعرض عليه أن يكون في جواره.

ودفع حب الوليد بن المغيرة وعمومته لعثمان بن مظعون، أن يوافق فورا على جواره، وأن يعلن أمام الناس أن عثمان بن مظعون قد دخل في جواره فلا يؤذيه أحد.

ولأول مرة منذ عامين، يكون عثمان حرا طليقا في مكة دون أن يعترضه أحد..

ولأول مرة منذ عامين يشعر عثمان بن مظعون بالأمان ويرتاح جسده من الألم.

وما هي إلا أيام، حتى كان هذا الشعور الجديد سببا في توتر وقلق عثمان !

ويوما بعد يوم.. بدأ القلق يزداد، ويصاحبه الأسى والحزن..حتى تضاعفت المشاعر الحزينة عند عثمان إلى حد لا يحتمل.

كيف يكون في أمان وأصحابه يعذبون أمام عينيه ؟!

كيف تطاوعه نفسه أن تأكل وتضحك وتنام، وزبانية قريش يسومون إخوانه سوء العذاب ؟!

كيف يتحمل أن تقع عيناه على عيني إخوانه وهم يتألمون ويصرخون ؟!

وتكاثرت الأفكار على رأس عثمان، وتكتلت عليه كحجر ضخم لا يقدر على دفعه...و

«لابد أن أذهب للوليد بن المغيرة وأرد عليه جواره».

صاح بها عثمان بن مظعون بعد تفكير طويل، ثم تنهد وأخذت أنفاسه تذهب وتجيء بسرعة كأنه يلهث وهو يقول:

- نعم..هذا هوالحل الوحيد الذي سيريحني من هذا العذاب، ولا شيء غيره.

وبسرعة..انطلق إلى الوليد بن المغيرة، وما لبث أن رآه، حتى قال له في حسم:

- يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، وقد رددت عليك جوارك.

نهض الوليد في دهشة، بعد أن فوجئ بانفعال عثمان، وقال بلهجة من يريد أن يفهم:

- لم يا بن أخي؟ هل آذاك أحد من قومي ؟

هدأ عثمان شيئا من هجومه الانفعالي غير المقصود على الوليد، وبدت عليه مسحة من الخجل لهذا الهجوم، ثم قال وهو يدير وجهه محاولا أن يكتم انفعاله:

- لا.. ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

ثم تابع في هدوء:

- عذرا يا عماه..فلننطلق إلى الكعبة الآن، ولترد علي جواري علانية كما أجرتني علانية.

ولم يستطع الوليد أن يقنع نفسه بما يحدث، إلا أنه وافق مضطرا تحت إلحاح عثمان بن مظعون.

وبالفعل.. ذهب الاثنان إلى الكعبة، وعنده وقف الوليد وبجانبه عثمان وهو يقول موضحا أن ما يفعله ليس برغبته قائلا:

- هذا عثمان، قد جاء يرد علي جواري.

وهنا هتف عثمان معلنا شكره للوليد قائلا:

- صدق عمي الوليد.. ولقد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكني أحببت ألا أستجير بغير الله.

وهنا ارتكن عثمان على حائط المسجد الحرام، وهو يشعر أن حملا كبيرا قد انزاح من على صدره.

الآن ارتاح عثمان.. لأنه أصبح كما أراد .. مثل إخوانه معرضا للإيذاء كما يتعرضون، ليس مميزا عنهم في شيء.

الآن يستطيع عثمان أن يمشي أمامهم فتقع عينه على عيونهم ليبتسم ويقول لهم:

- لقد جئت إليكم يا إخواني أشارككم الألم.

ولم ينتظر عثمان حتى يأتي إليه من يؤذيه..

فلقد انطلق مسرعا يبحث عن وسيلة يجبر بها قريشا على إيذائه !

أي طريقة تجعله يدخل في ملحمة الجهاد والإيذاء في سبيل الله كما يرى إخوانه ؟!

وظل يبحث ويبحث.. حتى وجد ما أراد.

فلقد وجد مجلسا من مجالس قريش، ينشد فيه الشاعر لبيد بن ربيعة شعرا، فجلس معهم ، فإذا به يسمع لبيدا يقول:

- ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

وهنا قال عثمان بحماس:

- صدقت.

ثم تابع لبيد:

- وكل نعيم لا محالة زائل.

وهنا وجد عثمان ضالته، فصاح في قوة:

- كذبت يا لبيد..نعيم الجنة لا يزول.

هنا انزعج لبيد وهو ينظر إلى عثمان، ثم التفت إلى من في المجلس وهو يصيح في غضب:

- يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال أحدهم محاولا أن يهدئ من ثورة لبيد:

- إن هذا رجل سفيه فارق ديننا، فلا تزعج نفسك بما يقول.

ووجد عثمان الفرصة مواتية لتصعيد الحوار، فرد عليه ردا استفزه، فما كان من الرجل إلا أن ضربه ضربة على عينه، احمرت وتورمت على إثرها.

وينظر الوليد بن المغيرة - والذي كان قريبا من المجلس- ليفاجأ بما حدث لعثمان، فيهرع إليه ويقول في إشفاق مصحوبا باللوم قائلا:

- أما والله يا ابن أخي، لقد كانت عينك غنية عما أصابك، فقد كنت في ذمة منيعة.

نظر عثمان إلى عمه الوليد، وهو يضع يده على عينه المصابة قائلا وهو يبتسم:

- بل والله إن عينى السليمة لمحتاجة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هوأعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

ويحاول الوليد أن يجعله يراجع موقفه، فيقول له في حرارة:

- هلم يا بن أخي، إن شئت فعد إلى جواري.

ويقول عثمان بإصرار في رفق، موجها شكره إلى عمه الوليد:

- شكرا لك يا عماه، لكني لن أكون في جوار أحد..أي أحد.

وربت عثمان على كتف عمه الوليد، ثم مشى إلى داره هادئا في سكينة، كان يبحث عنها منذ أيام.

كان يبحث عن هذا الألم.. ليشعر بالسعادة..

إنها سعادة الجوار والمشاركة والتضحية والجهاد.

سعادة الإحساس بالمسؤولية وقيمة الذات والدفاع عن المبدأ .

هذا النوع من السعادة لا يتأتى إلا بالألم، ولا يشعر به إلا نوعية خاصة من البشر.. أمثال عثمان بن مظعون.

ولقد مضى إلى بيته ينشد الشعر ليعبر عن سعادته وهو يقول:

فـإن تـك عينـي في رضـا الله نالهـا ... يدا ملحـد في الـدين لـيس بمهتـدي
فقـد عـوض الـرحمن منهـا ثوابـه ... ومن يرضـه الـرحمن يـا قـوم يـسعد
فـإني وإن قلـتم غـوي مـضلل ... لأحيـا عـلى ديـن الرسـول محمـد
أريـد بـذاك الله، والحـق ديننـا ... على رغم مـن يبغـي علينـا ويعتـدي

ودخل عثمان بيته ليغلق عليه بابه ويرتاح على أريكته..

لأول مرة منذ عودته من الحبشة يرتاح بعد جلوسه على أريكته.

لأول مرة يشعر بهدوء النفس وراحة الضمير.

والفضل في ذلك يرجع إلى عينه المصابة التي أدخلت عليه كل هذا السرور.

وينام عثمان هادئا..منتظرا الصباح ليخرج فيه إلى قريش..

ليستفزهم مرة أخرى.. وليضربوه مرة أخرى.

وفي المرة الثانية التي أمر فيها المسلمون بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن عثمان من بينهم.

فلقد آثر البقاء مع إخوانه في مكة، يكمل معهم الطريق، ويتحمل معهم الصعاب مهما كانت، والعذاب مهما بلغ.

وظل كذلك سنوات حتى أذن الله لرسوله ﷺ بهجرة كان هو على موعد معها.

الهجرة إلى المدينة.

* * *

في المدينة...

يستمر عثمان مع الرسول ﷺ وأصحابه في رحلة الكفاح ونشر الرسالة..

وينظر الصحابة إلى ابن مظعون فيجدونه قد اتخذ منهجا فريدا في الزهد والتقشف، دفع الرسول ﷺ أن يرق لحاله يوما، بعدما رآه قد دخل عليه في أحد المجالس وهو يرقع ثوبه بقطعة من فرو، فقال له الرسول ﷺ:

« كيف أنتم يوم يغدوأحدكم في حلة، ويروح في أخرى وتوضع بين يديه قصعة وترفع أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ».

فرد أحدهم في اشتياق قائلا:

- وددنا أن ذلك يكون يا رسول الله، فنصيب الرخاء والعيش.

فقال له الرسول ﷺ مبشرا:

« إن ذلك لكائن، وأنتم اليوم خير من يومئذ».

كانت الرسالة موجهة إلى عثمان بن مظعون ، ليعطيه الأمل في الأيام القادمة ويبشره بأن الحياة الصعبة التي يعيشها حتما لن تدوم.

لكن «عثمان» لم يكن ينتظر هذه الأيام ولم يكن يبحث عنها، فلقد اتخذ منهجا قاسيا في حياته، زهد به حتى في زوجته.

وعندما علم الرسول ﷺ ذلك، أراد أن ينحيه عن مبالغته غير المقبولة، فنصحه قائلا:

« إن لأهلك عليك حقا ».

إلا أن ابن مظعون لم يكن ليمكث كثيرا على هذه الحال، فلم يكد يمضى عامان على هجرته للمدينة، وبعد غزوة بدر بشهور، حتى اختاره الله كأول مهاجر بالمدينة (بعد بدر) تصعد روحه إلى جوار ربها.

وملأ الحزن وجه الرسول ﷺ، وهطلت الدموع من عينيه وهو يلقي نظرته الأخيرة على رجل أحبه لأنه أحب الله ورسوله بكل صدق.

وكانت آخر كلماته له وهو يرى وجهه وهو مشرق متلألئ:

«رحمك الله يا أبا السائب،خرجت من الدنيا، وما أصبت منها ولا أصابت منك».

مات ابن مظعون، لكن لم تمت ذكراه ولا مواقفه.

لم ينساه الرسول ﷺ يوما، فكان كثيرا ما يذكره لأصحابه.

حتى إنه تذكره في لحظة قاسية من حياته، عندما توفيت ابنته رقية وفاضت روحها إلى بارئها، عندئذ كانت كلمات وداعه لها:

«الحقي بسلفنا الخير، عثمان بن مظعون ».

مات ابن مظعون قبل أن يغدو في حلة ويروح في أخرى، وتوضع يده في قصعة وترفع عن أخرى، وقبل أن يستر بيته كما تستر الكعبة.

مات ابن مظعون ليذهب إلى أكثر من ذلك ملايين المرات.

إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وداعا يا عثمان..

سنأتيك يوما.. إن شاء الله..لنرى معا ما رأيت.

ونتحاكى عما رأيناه سويا كثيرا..

كثيرا...

* * *

دروس وتحليل

١ - الشائعات مرض اجتماعي قد يؤدي إلى كوارث (المسلمون عادوا من الحبشة بعد شهرين من الهجرة بناء على شائعة).

من الطبيعى أن يطلق شخص ما شائعة ليس لها أساس من الصحة، هذا الشخص إما جاهل أو محدود الثقافة أو لديه نقص ما، ويريد لفت الأنظار إليه بكلام كاذب أو كلام غير دقيق.. هذا يحدث وسيحدث.

ولكن من غير الطبيعى أن ينساق معه من يستمع إليه بهذه الصورة العجيبة التي تضمن سريان الإشاعة في قطر بأكمله خلال أيام.

لماذا لا يبذل الناس جهدا بسيطا في التأكد من المعلومات قبل نقلها إلى آخرين ؟ لماذا لا يفترضون أن الشخص صاحب الخبر الخطير أوالغريب، من الممكن أن يكون قد أخطأ في نقل المعلومة، أو لم يفهم الموضوع بدقة، أوأنه لم يعن بالتأكد من الخبر قبل إطلاقه ؟

والغريب أنك عندما تسأل أي شخص عن مصدر الخبر الذي ينقله بكل ثقة عن نفسه، فإنه يقول دائما: لقد سمعت! والأغرب والأعجب هو تحور الخبر بشكل غريب ومثير، لتصبح العصا سكينا ويصبح السكين مسدسا، والمضروب عشرة والعشرة مائة !

هناك أخبار سببت بلبلة غير عادية في البلاد، وأصابت الناس بالرعب، وألحقت بشركات تجارية خسارات فادحة، ولم تكن في النهاية.. سوى شائعات!!

فلنشك قليلا فيما ينقل لنا من أخبار، ونتأكد منها قبل أن نطلقها، ونكون سببا في مشاكل لا حصر لها.

٢ - فلسفة المجتمع الإسلامى تقوم على الشعور بمعاناة الآخرين لمساعدتهم ونصرتهم، وبذلك تتحقق الوحدة ويشعر المواطن بالانتماء (عثمان بن مظعون لم يتحمل أن يكون حرا طليقا وهو يرى إخوانه يعذبون، فيرد الجوار على عمه).

كيف يتحقق الترابط والتكافل والوحدة في المجتمع المسلم ونحن نرى الضعفاء والفقراء دون أن نمد لهم يد العون، ونرى المظلومين أمام أعيننا دون أن نساندهم ولو حتى بالدعاء؟!

إن المشكلات الاقتصادية والسياسية التى نمر بها ، دفعتنا إلى الانزواء على النفس وسربت إلينا السلبية بصورة جعلت ما نقدمه لغيرنا هو مجرد التعاطف الوقتي المحدود.

لابد أن نعيد إلى مجتمعنا الإيجابية التى تحرك المشاعر نحوالفقراء والمستضعفين، فإذا لم نستطع التحرك بالعمل، فليكن بالدعوة والكلام، فإذا لم نستطع.. فليكن بالدعاء، وذلك أضعف الإيمان.

٣- قد يتعرض الإنسان للألم النفسي والمادي، ولكنه يجد في ذلك السعادة؛ لأنه يشعر معهما بقيمته وذاته والتضحية من أجل الدفاع عن مبادئه (عثمان بن مظعون يشعر بالراحة بعد رد الجوار وانضمامه إلى إخوانه المعذبين).

دائما يتعجب الطغاة والظالمين من إصرار من يظلمونهم على مبادئهم، ودائما يراهنون على عدم تحملهم، إلا أن ما يحدث من صمود يكون مذهلا لهم رغم ما يتعرضون له من ضغوط وإيذاء، والسر في ذلك أن الشخص الذي يدافع عن مبدأ وقضية، وخصوصا لو كانت هذه القضية مرتبطة بالعقيدة؛ فإنه يشعر بذاته وقيمته، ويستشعر مع ما يعانيه حب الله له، ويظل يحلم بالجنة التى وعدها الله إياه في الآخرة، كل هذا يثبته ويلهمه الصبر ويصيب الطغاة بمزيد من التعجب والذهول قائلين لأنفسهم: ما الذي يجعلهم مصرين على مبادئهم رغم كل ما يتعرضون له ؟!

صحيح أن هؤلاء الضعفاء يؤذون ويحزنون، ولكن شعورهم بأنهم في معية الله، دائما يشعرهم بما لا يستطيع غيرهم أن يشعر به.

٤- الرسول ﷺ يعلمنا دائما أن نعطى الأمل للآخرين مهما كانت الظروف سيئة، ولكن مع العمل والاجتهاد (الرسول ﷺ يمني عثمان بن مظعون بتحسن أحوال معيشته في المستقبل).

ليتنا نتعود أن نكون متفائلين، نعطى الأمل لمن حولنا ولو في أحلك الظروف، ولكن ينبغى أيضا أن يكون هذا التفاؤل والكلام مقنعا للآخرين، بمعنى أن يرتبط بالتفكير لإيجاد حلول واقعية وحقيقية للمشكلات، والبدء في تنفيذها، فإذا فشلت المحاولة، تستمر دورة التفاؤل لنفكر في حل آخر تتبعه محاولة أخرى..هكذا يكون التفاؤل مبررا وعمليا، لا يقف عند حد الكلام المبهم الذي لا ينطوي على عمل، فيفقد الناس الثقة فيمن يدفعهم إليه، ويرونه لا يقدر إلا على أن يطلق بعض كلمات في كل موقف صعب، لا ينبني عليها رؤية ولا عمل فعال.

هكذا نقنع غيرنا بالأمل، فتستمر دورة التفاؤل والعمل دون انقطاع، وينتهي اليأس من النفوس بلا رجعة.

* * *